اللغة والسياسة في فكر نعوم تشومسكي

فريـــدة كـــافي
قسم الفلسفـــة
جامعة باجي مختار – عنابة-

الملخَّـص:

يهدف هذا المقال إلى الكشف عن علاقة اللغة بالسياسة عند المفكر الأمريكي نعوم تشومسكي (Noam Chomsky (1928-)، اعتمادا على ذلك التصور الذي قدمته نظريته اللغوية حول الطبيعة الإنسانية، والتي تشكل الحرية جوهرها. وتنطلق الدراسة من فرضية مفادها أن دفاع تشومسكي عن الحرية يعكس تمرّده على السلطة من جهة وتاثره بافكار كبار الفوضويين من جهة أخرى، كما يعكس ثورته على التوجه السلوكي في اللغة الذي اختزل السلوك البشري في مفهومي فعل ورد فعل. وقد حاول تشومسكي عبر نظريته اللغوية إثبات أن هناك مبادئ فطرية كامنة مسؤولة عن النشاط الاجتماعي والسياسي لدى البشر، ومن ثم تمثل هدفه في كيفية توظيف هذه الفكرة بشكل فعّال في مناهضة أشكال السلطة التي تمارس الرقابة على الأفراد وتقمع الجانب الإبداعي للإنسان. كما تظهر علاقة اللغة بالسياسة عبر تحليله للغة المستخدمة من قبل السلطة، خاصة تلك المستخدمة في الإعلام. وقد توصل المقال في النهاية إلى استنتاج مفاده أن كلا الجانبين متداخلين في فكره أشد التداخل، فدفاعه عن الحرية الإنسانية ظهر منذ وضعه لنظريته اللغوية، كما أن اللغة لم تغب عن اهتمام تشومسكي في كتاباته السياسية، إذ أن مشروعه الفلسفي لم يكتمل إلا بكتاباته السياسية.

الكلمات المفتاحية: اللغة_ السياسة_ العقل_ الطبيعة البشرية_ الحرية_ الفوضوية.

Résumé:

Cet article vise a clarifier la relation entre le langage et la politique selon le penseur américain contemporain Noam Chomsky, et sa perception de la nature humaine revendiquée par sa théorie linguistique qui croit que son essence est la liberté. Sa défense de la liberté peut refléter sa rébellion contre l'autorité, et bien aussi sa révolution sur l'approche behavioriste dans le langage, qui a réduit le comportement humain au principe « d'action et réaction » pour prouver par sa théorie linguistique qu'il existe des principes innés et latents qui sont responsable de l'activité sociale et politique humaine. Chomsky a exploité sa théorie efficacement pour lutter contre les formes de pouvoir qui exercent le contrôle sur les individus et empêchent tout acte créatif. En outre, la relation entre le langage et la politique apparait

à travers son analyse de langue utilisée par l'autorité, spécialement celle qui est utilisée par les medias. Etre linguiste a aidé Chomsky à s'engager dans la langue utilisée dans le discours politique, on peut donc conclure que les deux parties se sont entrelacées dans l'idée, parce que sa défense des libertés individuelles est apparie depuis qu'il a développé sa théorie linguistique.

Les mots clés : Langage-Politique-Raison-La nature humaine-Liberté-Anarchisme.

Abstract:

This article aims to clarify the relationship between language and politics according to the American thinker Noam Chomsky in terms of his perception about the human nature that is claimed by his linguistic theory which believes that its essence is freedom, his defense of liberty may reflect his rebellion against authority and his influence by the ideas of the leading anarchists, and it reflects as well his revolution on behaviorism in language, which reduced human behavior to just act and react, to prove via his linguistic theory that there are innate, latent principles which are responsible on the human social and political activity. Chomsky exploited his theory effectively to fight against the forms of power that exercises control over individuals and suppress the creative side of man. Also, the relationship between Language and politics appears through his analysis of the language used by the authority especially that which is used in the media. Being a linguist helped Chomsky to engage in the language used in the political discourse, thus, we can conclude that both sides intertwined in the idea, because his defense on human freedom appeared since he developed his linguistic theory, also, language was not absent in Chomsky's political writings, and then, Chomsky's philosophical project is completed by his political writings.

Key words : Language-Politics-Mind-Human nature-Freedom-Anarchism.

تقديم:

برز المفكر الأمريكي نعوم تشومسكي(Noam Chomsky, 1928) كعالم لغويات له وزنه وتأثيره القوي في هذا الحقل، خاصة بعد ذلك التحوّل الجوهري الذي أحدثته نظريته اللغوية في البحث اللساني؛ إلا أن هذا لم يمنعه من الخوض في أهم القضايا السياسية الراهنة حيث ظهر كناشط سياسي من أكبر المناوئين للسياسة الخارجية الأمريكية، ليتحول، بالتالي، إلى

واحد من أبرز المفكرين السياسيين العالميين المعاصرين. إن هذه الثنائية هي التي دعت العديد من الباحثين في فكر تشومسكي إلى محاولة الوقوف على طبيعة العلاقة التي تربط نظريته اللغوية باهتماماته السياسية.

وإذا كان تشومسكي نفسه لا يقرّ بأي ارتباط بين كتاباته اللغوية وتحليلاته السياسية، فإن هذا لا ينفي ذلك الارتباط الوثيق بين اللغة وبين السياسة لديه، حيث أن كل كتاباته حول اللغة والسياسة تؤكد وجود مثل هذه العلاقة. وسنسعى من خلال مقالنا الكشف عن أهم التمفصلات التي تربط بين نظريته اللغوية وتحليلاته السياسية. من هنا، يجب طرح بعض التساؤلات: كيف ساهم عمله اللغوي في تكوين اعتقاداته السياسية؟ وما هو الأساس الذي انتقل من خلاله من اللغة إلى السياسة؟ وما هي تجليات مثل هذه العلاقة بين اللغة وبين السياسة؟ هل هو لغويا في الأساس وترك اللغة ليتفرغ للقضايا السياسية أم كان سياسيا منذ البداية؟ هل هو لغوي لم يتخلى عن حقل تخصصه أم فيلسوف جمع بين الحقلين في مشروع فكري؟

للإجابة على مثل هذه التساؤلات، يبدو أنه من الضروري التطرق إلى الانتقادات التي وجهها تشومسكي إلى الأنموذج التجريبي في اللغة الذي تجسد خاصة في التوجه السلوكي، ثم الكشف عن البديل الذي طرحه والمتمثل في نظريته اللغوية، هذه النظرية التي قدمت تصورا أساسيا لمفهوم الطبيعة البشرية لديه، وهو المفهوم المحوري الذي يقودنا إلى الجانب السياسي من فكره، ثم توضيح أهم النقاط التي تظهر فيها علاقة اللغة بالسياسة في فكره.

1- نقد الأنموذج التجريبي وتوجه تشومسكي العقلي:

كانت نقطة الانطلاق عند تشومسكي في دراسته للغة* هي نقد التوجه التجريبي الذي تجسد خاصة في التوجه السلوكي الذي أيده ضمن من أيدوه عالم اللغويات الأمريكي ليونرد بلومفيلد Leonard Bloomfield(1887ــ1949) هذا الأخير، الذي استلهم تصوره للغة من المبادئ التي قامت عليها المدرسة السلوكية* فرأى أن العملية اللغوية لا تختلف عن أي ظاهرة طبيعية أخرى، فهي تخضع لمبدأي: المثير Stimulus والاستجابة response وهكذا حاول وصف الحادث اللغوي الذي "يتكون من ثلاثة أجزاء حسب الترتيب الزمني: الأحداث التي تسبق فعل الكلام، الكلام، ثم الأحداث العملية التي تلي فعل الكلام"[1]؛ فالأحداث التي تسبق فعل الكلام هو ما أطلق عليه بلومفيلد "speaker's stimulus"[2] والأحداث التي أعقبت الكلام اعتبرها "hearer's response"[3] فالأولى هي ما يمكن أن نسميه تحفيز المتكلم، والثانية هي استجابة المستمع.

من هذا المنطلق، يمكن القول أن السلوكيين قد انطلقوا في دراستهم للغة من الشروط الخارجية؛ أي الظروف والسياقات، فكل سياق يؤدي إلى استجابة معينة، وهي عملية آلية خالية من أي وعي أو تفكير. إلا أن تشومسكي قد انتقد هذا التصور بشدة، فالسلوكيون حسب رأيه قد نظروا إلى اللغة من منظور ضيق، فلا يمكن بأي حال من الأحوال اختزال السلوك البشري والقدرات الإنسانية إلى مجرد عملية آلية لاواعية عبارة عن علاقة بين مثير معين تتبعه استجابة، فاللغة ترجع إلى قدرة عقلية داخلية وليست نتيجة لعوامل خارجية. وقد رجع تشومسكي إلى التراث العقلاني وكان حريّ به أن يسوق حجج الديكارتيين خاصة تلك المتعلقة بفَرَض الفطرية والحجج

التي يمكن استخدامها من أجل دحض طروحات التجريبيين فيقول: "الآلة مجبرة على العمل بطريقة معينة، ضع الآلة في حالة محددة ضمن وضع خارجي مخصوص، ستجدها مجبرة على العمل بطريقة محددة (إذا استبعدنا العوامل الاعتباطية)، أما إذا وضعت الإنسان في ظروف توازي ظروف الآلة فإنه فقط يتحفز وينحو لأن يتصرف بطريقة معينة...لكن ستفقد النظريات السلوكية دائما النقطة الحاسمة: كان في وضع الشخص أن يتصرف بطريقة أخرى"[4] ما يعني أن القول بالإرادة الحرة للبشر ينتفي أمامه أي وصف آلي للسلوك؛ لأن هذه الإرادة تتيح إمكانية الاختيار بين عدة إمكانيات. كما أكد تشومسكي على وجود ما أسماه ملكة اللغة (Faculty of Language) معتبرا إياها "عضو لغة بالمعنى الذي تحدث به العلماء عن الجهاز البصري أو جهاز المناعة ... بوصفها أعضاء من الجسم"[5] أي أن هناك عضو من طبيعة مادية مسؤول عن اللغة، ومنه، فاللغة خاصية إنسانية تنبع من الداخل وليست مجرد انعكاس لمؤثرات خارجية.

كما رفض تشومسكي فكرة الاكتفاء بالوصف وحده، هذه المسألة التي ركزت عليها المناهج التجريبية؛ لأن هذا يقتضي إهمال العمليات الداخلية التي يعتبرها المسؤولة عن اللغة، فاللغة من منظوره جزء من تركيبتنا البيولوجية إذ يقول:"يبدو اكتساب اللغة شبيها كثيرا بنمو الأعضاء عموما، انه شيء ما يحدث للطفل، وليس الطفل هو الذي يقوم به، وفي حين أن البيئة تهم بشكل واضح، فإن المسار العام للتطور والسمات الأساسية لما ينشأ عنه إنما تحددها مسبقا الحالة البدئية"[6] ومنه، تبدو اللغة مكوّنا أساسيا لطبيعتنا البشرية، والمنهج الوصفي عاجز من عدة نواح، فلا يمكنه سبر تلك العمليات الداخلية التي تخص تطور أعضائنا البشرية. وعلى ضوء هذا، أكد على

أهمية التفسير explanation فمهمة الباحث اللغوي من وجهة نظره هي تعليل هذه القدرة الداخلية وتفسيرها، وقد أطلق على مشكلة التفسير في اللغة "مشكلة أفلاطون" (Plato'sProblem) يشرح تشومسكي هذه المشكلة بقوله:"والمشكلة الرئيسية ... أن معرفتنا تترابط بصورة متّسقة وغنية كما يشاركنا فيها الآخرون في نفس الجماعة اللغوية، وذلك رغم أن المادة المتاحة فقيرة أكثر مما ينبغي جدا، حتى إنها لا تحدد هذه المعرفة عن طريق أي إجراء عام كالاستقراء أو التعميم أو القياس أو الربط أو غير ذلك"[7] ويمكن إيضاح مشكلة أفلاطون بطرح السؤال التالي: كيف يمكننا تكوين معارف معقدة انطلاقا من معارف بسيطة وضئيلة.

ويعتبر النحو العام (العالمي) (Universal Grammar) من الطروحات المركزية التي تقوم عليها نظرية النحو التوليدي؛ وهو عبارة عن قواعد ثابتة مشتركة بين جميع البشر بصورة فطرية لدى كل واحد منهم وقد عرّفه على أنه "خصائص مجردة عامة تسمى بالنحو الشامل: صفات اللغة العامة التي تعكس نوع من الضرورة البيولوجية بدلا من الضرورة المنطقية، أي صفات اللغة التي ليست ضرورية منطقية لمثل هذا النظام، بل الصفات الجوهرية الثابتة للغة الإنسانية التي تعرف دون تعلم"[8] وفي هذا الإطار، لا يمكننا إغفال جانب مهم من اللغة عند تشومسكي والذي يثبت توجهه العقلي وهو المظهر الإبداعي حيث يقول: "نفهم بوضوح أنه من الخصائص الأساسية التي تتصف بها جميع اللغات بصورة مشتركة هي المظهر الإبداعي(Creative Aspect)، فهذه هي الخاصية الأساسية التي تمتاز بها اللغة من حيث أنها توفر للإنسان وسيلة للتعبير عن الأفكار بصورة غير متناهية، وللتفاعل المناسب في عدد غير متناه من المواقف والأوضاع الجديدة"[9] وفهم

اللغة ينطلق من إدراك حقيقة أن الإنسان يبدع لغته بصفة خلاّقة ومتجددة كلما اقتضى الأمر ذلك، وسبب قصور الاتجاه السلوكي هو نفيه لحرية كل فرد في استخدام لغته، وذلك باختزال اللغة البشرية في مجرد عملية آلية، فنحن في الأصل نتكلم بكل حرية، وعلينا التعامل مع "هذه الأفكار باعتبارها ابتكارا وإبداعا وحرية وإنتاجا لكيانات جديدة وعناصر جديدة للفكر والسلوك داخل نسق قاعدي وتخطيطية ما، هذه هي المفاهيم التي اعتقد انه يمكن التعامل معها."[10] ولعل هذا ما يقدم تصورا أساسيا حول مفهوم الطبيعة البشرية في فكر تشومسكي.

2_ الطبيعة البشرية:

لا شك أن مفهوم الطبيعة البشرية من المفاهيم الخلافية أي التي أُثير حولها جدل واسع يتلخص في هذا السؤال البسيط: هل هناك فعلا طبيعة بشرية؟ وبالنسبة إلى تشومسكي، فإن نظريته اللغوية قد قدمت تصورا أساسيا لمفهوم الطبيعة البشرية عنده، لكن كيف يمكن تفسير ذلك؟

أ_ مفهومها:

هذا المفهوم هو حجر الزاوية في فلسفته بوجه عام بشقّيها اللغوي والسياسي؛ فإذا استطاع تشومسكي دحض طروحات السلوكيين والبنيويين عبر إثباته أن كل إنسان يملك مقدرة عقلية تمكنه من إنتاج لغته والتعبير عن أفكاره بصفة خلاقة وحرة، فإن هذا الاكتشاف لابد أن يحمل تصور ضمني بأنه يقر بوجود طبيعة بشرية مشتركة انطلاقا من فكرة وحدة اللغة الإنسانية؛ فالبشر ينفردون باستعمالهم للغة بشكل مبدع وحر، ولعل هذا أكبر دليل على أنه يقر بوجود طبيعة بشرية واحدة لدى جميع الناس وهذا ما يبينه قوله:"لا يستطيع حتى نقاد ما بعد الحداثة المتطرفين القول جديا بعدم وجود الطبيعة

البشرية، قد يناقشون بأن الصفات الدقيقة للطبيعة الإنسانية صعب تجسيدها – هذا صحيح بالتأكيد – لكن من المستحيل الجدال بشكل متماسك بعدم وجود الطبيعة البشرية الشاملة الجوهرية (الفطرية) هذا يعادل الاعتقاد بأن الخلية الإنسانية الملقحة القادمة يمكن أن تتطور إلى حشرة أو سرطان".[11]

وانطلاقا من قوله بالمظهر المتجدد للغة والمعارف المنظمة التي يكوّنها البشر من معارف بسيطة ومتناثرة، بنا تشومسكي استدلالا على أن هناك خصائص وقدرات فطرية ثابتة مشتركة بين جميع البشر أطلق عليها "معرفة غريزية" حيث يقول: "سأزعم إذن أن المعرفة الغريزية، أي، إن شئت هذه التخطيطية التي جعلت من الممكن استخلاص المعرفة المركبة والمعقدة من أساس البيانات الجزئية تماما، وهي واحدة من المكونات الأساسية للطبيعة الإنسانية، وفي هذه الحالة أظن أنها مكون أساسي بسبب الدور الذي تلعبه اللغة، ليس فقط في التواصل، ولكن أيضا في التعبير عن الفكر والمشاركة بين الأشخاص، وأنا افترض أنه في مساحات أخرى من الذكاء الإنساني، أي مساحات أخرى من الإدراك والسلوك، هناك شيء من النوع نفسه يجب أن يكون حقيقيا."[12] ما يعني أن هناك نظام من المبادئ الفطرية أو الغريزية هي المسؤولة على مختلف تنظيماتنا الفكرية السياسية والاجتماعية والثقافية وغيرها، أي أن نشاطنا الفكري السياسي والاجتماعي محكوم بالمبادئ الفطرية نفسها المسؤولة عن اللغة، ومنه خلص تشومسكي إلى مفهوم الطبيعة الإنسانية على أنها ذلك النسق الكلي الموروث الذي يوجه مختلف سلوكياتنا الاجتماعية والفكرية وهذا ما يثبته قوله:"هذا التجميع، هذه المجموعة من التخطيطات أو المبادئ المنظِّمة الموروثة، التي تقود سلوكياتنا

الاجتماعية والعقلية والفردية، هي ما أقصد أن أشير إليه بمفهوم الطبيعة الإنسانية."[13]

وإلى جانب دفاع تشومسكي عن وجود طبيعة إنسانية ثابتة انطلاقا من تلك المظاهر الكونية الشاملة للمبادئ الغريزية التي تتحكم بسلوكنا، فقد دافع كثيرا عن حرية الإنسان واعتبر أن وجوده مشروط بحريته؛ والحرية شأنها شأن اللغة ليست شيئا مكتسبا من البيئة الخارجية أو شيء يمكن منحه للإنسان، ولكنها معطى طبيعي نابعة من طبيعة البشر كبشر، فجوهر هذه الطبيعة الإنسانية هو الحرية (Freedom) وأيضا النزوع نحو التحرر حيث يقول:"إن العنصر الأساسي للطبيعة الإنسانية هو الحاجة إلى العمل المبدع والبحث المبدع، والى الإبداع الحر دون تأثير متعسف ومضيّق من قبل المؤسسات المتسلطة، وينتج عن ذلك بالطبع مجتمع سليم يضاعف الإمكانيات لهذه الصفة الإنسانية الأساسية المؤكدة. وهذا يعني محاولة تجاوز عناصر الكبت والقمع والهدم والتسلط الموجودة في أي مجتمع موجود."[14] ولذلك رأى أنه ينبغي أن تتاح فرص الابتكار والإبداع للأفراد في أي مجتمع فيضيف قائلا:"فإن أي شكل من التسلط أو القمع، وأي شكل من السيطرة الأوتوقراطية على أي نطاق كان من الوجود، مثل الملكية الخاصة لرأس المال أو تحكم الدولة في بعض جوانب الحياة الإنسانية، وأي نوع من أنواع القيد الأوتوقراطي على جانب ما من المحاولة الإنسانية، يتم تبريره فقط _إن تم تبريره_ بمصطلحات الحاجة إلى الدعم والحاجة إلى العيش، أو الحاجة إلى الدفاع في مواجهة قدر رهيب ما أو شيء من هذا النوع، ولا يمكن تبريره بشكل موروث، يجب بالأحرى تجاوزه ومحوه."[15] وعليه، يمكن القول أن تشومسكي قد انتقل من الحديث عن وجود مبادئ فكرية موروثة

ليثبت أن هناك طبيعة إنسانية ثابتة جوهرها هو الحرية والعمل الحر، ولعل هذا ما ينقلنا إلى الضفة الأخرى من فكره، وهي السياسة.

ب_تصور تشومسكي لمفهوم السياسة:

يبدو أن مفهوم تشومسكي للطبيعة الإنسانية وتصوره للحرية يسلط الضوء على اعتقاداته السياسية؛ بل إن هذا المفهوم يكوّن لنا تصور أساسي لكتاباته السياسية، خاصة فيما يتعلق بدفاعه عن الحرية والمشارب الفوضوية والتنويرية التي نهل منها أفكاره.

كان أول مقال كتبه تشومسكي في السياسة سنة 1967 تحدث فيه عن دور المثقف ومسؤوليته عنوانه "مسؤولية المثقفين (The Responsibility of Intellectuals) والذي قال فيه:"إن مسؤولية المثقفين هي قول الحقيقة وكشف الأكاذيب"[16] يبدو أن الهدف الأساسي لتشومسكي هو الوصول إلى الحقيقة شأنه شأن أغلب الفلاسفة الذين آمنوا بفكرة بلوغ الحقيقة، ولا يكون هذا متاحا حسب اعتقاده إلا "باستعادة قدر يسير من الاحترام لقيم التنوير، للحرية وحقوق الإنسان، لن يكون بالشأن اليسير. ولعل الخطوة الأولى هي اختراق حجب الخداع والتحريف وتعلم قول الحقيقة حول شؤون العالم، ثم التنظيم والعمل من أجل تغييره."[17]

والملاحَظ أن تحليلات تشومسكي السياسية مرتبطة بمفهومه للطبيعة الإنسانية؛ حيث انبنت جل مواقفه السياسية على هذا المفهوم، وهو نفسه يرى أن كل رؤية أو توجه ما لابد وأن يحمل ضمنيا تصور عن مفهوم الطبيعة الإنسانية، أي أن كل تصور سياسي قد تأسس على هذا المفهوم إذ قال: "لابد لرؤية محيية من أن ترتكز على تصور ما عن الطبيعة الإنسانية، عما هو

خير للناس، عن احتياجاتهم وحقوقهم، عن تلك الجوانب من طبيعتهم التي يجب رعايتها وتشجيعها وإفساح المجال لها لكي تزدهر لخيرهم وخير الآخرين. إن مفهوم الطبيعة البشرية الذي يبطن رؤانا هو في الأغلب كامن وجنيني، بيد انه موجود دائما وإن ضمنيا."[18]

وفي معرض حديثه عن علاقة اللغة بالسياسة بيّن تشومسكي أنّ السياسة ليست كعلم اللغويات، و لذلك نجده قد صنّف السياسة ضمن العلوم الاجتماعية، واعتبر أنه ليس من اللائق إقامة أية مقارنة بين اللغويات والعلوم الاجتماعية قائلا: "لعله من العجب العجاب، تلك المقارنة بين العلوم الرياضية، والعلوم الاجتماعية، وإنه في العلوم الرياضية فالناس معنيون بما تقوله، وليس بما تقرره"[19] بمعنى أن العلوم الاجتماعية والتي تتضمن السياسة لا تتصف بالدقة نفسها التي تتصف بها العلوم الرياضية أو الفيزياء التي تكون الأدلة فيها دقيقة. ومن خلال هذا التمييز الذي وضعه تشومسكي بين اللغة والعلوم الاجتماعية والتي منها السياسة يمكننا أن نفهم أن السياسة لأن أدوات البحث في العلوم الاجتماعية لا تكفي لأن تجعل منها علما، وبالتالي، فالسياسة عنده أقرب إلى أن تكون فنّا أكثر منها علما.

وبالإضافة إلى أن السياسة ليست من العلوم الدقيقة، يرى تشومسكي أن التفكير في الأمور السياسية والاجتماعية بصفة عامة ليس حكرا على طبقة معينة من المجتمع، وهنا عارض صموئيل هنتنغتون Samuel Huntington (1927-2008) فيما ذهب إليه ألا وهو "ابق الرعاع بعيدين عن المساهمة في اتخاذ القرارات. إذ من المفروض أن يكون الناس منتجين مطيعين، يفعلون ما يؤمرون وأن تبقى بقية حياتك مستهلكا، لا تفكر بالأمور، ولا تعرف شيئا، ولا تشغل بالك بأمور مثل اتفاقية الاستثمار المتعددة

الأطراف، أو الشؤون الدولية. افعل فقط ما تؤمر به."[20] فالتفكير في الشؤون السياسية بالنسبة إلى تشومسكي متاح لأي إنسان عاقل إذ يقول: "لقد صور المثقفون وأصحاب الفكر وكأن المهمة مقصورة عليهم وحدهم فحسب، حيث لا يمكن للبسطاء من محدودي الثقافة من المجتمع التمتع بالمشاركة في التفكير، لكن هذا القول جور لا معنى له."[21]

ج_تشومسكي والفوضوية:

يمكن القول أن تأثر تشومسكي بالفوضوية* جاء نتيجة لتصوره حول الطبيعة الإنسانية، فهو قد مجد الحرية الإنسانية ولذلك وجد في التيار الفوضوي ما يعبر عن تطلعاته وآماله؛ ورأى فيها مذهبا ملائما من أجل فهم أعمق لآليات عمل السلطة فيقول: "أعتقد بأنها تساعد على فهم اكتشاف ومعرفة تركيبة السلطة والتسلسل الهرمي والهيمنة في كل مجال من مجالات الحياة وتحديها إذا لم تبرر فهي غير مشروعة ويجب أن تجرد وتفكك لزيادة مدى الحرية الإنسانية، ويشمل ذلك السلطة السياسية والملكية والإدارة والعلاقات بين الرجال والنساء والأولاد وتحكمنا بقدر الأجيال القادمة."[22] وتظهر الخلفية الفوضوية واضحة في فلسفة تشومسكي من خلال موقفه من مسألة السلطة حيث يقول: "أي دور سلطوي يحتاج إلى مبررات، ولا يكفي أن يبرر الإنسان لنفسه."[23] ما يعني أن أي سلطة يقع على عاتقها تبرير ممارستها وفي هذا يعلن صراحة أن رؤاه الخاصة نابعة من التقليد الفوضوي وأفكار التنوير.*

ولعل السبب الرئيسي في انتقاد تشومسكي للنظم الرأسمالية، هو أنه في هذه النظم تكون حرية البشر مقيدة كما تتاح فيها فرص قليلة للإبداع الذي اعتبره أهم جانب من جوانب الذات الإنسانية. لكنه من جهة أخرى يعتقد أن

هذا التفاؤل بميل الإنسان نحو الإبداع والتحرر لا ينم عن معرفة كلّية بالطبيعة الإنسانية وإلا لصح القول بتوافق كلي بين النشاط الاجتماعي والسياسي وبين المبادئ الموروثة، حيث يقول: "ولو انطلقنا من فرضيات أخرى في ما يتعلق بالطبيعة البشرية الفطرية، أو إذا نحن أقررنا بكل بساطة بأننا لا نفهم إلا النزر اليسير من هذه الطبيعة وأننا لا يمكننا أن نخرج بخلاصات جازمة حول هذه المشكلة، كان هذا الافتراض يتيح مجالا واسعا للتفاؤل في ما يتعلق بإمكانية حصول التغيير السياسي، والحقيقة أننا لا نفهم إلا النزر اليسير في هذه المشكلة."[24] والنظر إلى الطبيعة الإنسانية من هذه الزاوية بنظر تشومسكي كفيل بترجيح احتمال التفاؤل وحدوث التغيير إلى الأحسن، كما أنه يعتقد أن تصور الفيلسوف للطبيعة الإنسانية غالبا ما يحدد توجهه السياسي*.

والبديل الذي طرحه تشومسكي هو "التصور الإنسانوي" الذي استقاه من جون ديوي John Dewey(1859_1952) وبرتراند راسل Bertrand Russel (1872_1970) ويقوم هذا التصور على التركيز على الذات بكل أبعادها وجوانبها الإنسانية التي سلبتها إياها النظم الرأسمالية حيث يقول: "فلأبدأ برسم ملامح وجهة نظر تم تفصيلها على يدي مفكرين بارزين في القرن العشرين هما برتراند راسل وجون ديوي، وقد اختلفا حول أشياء كثيرة جدا لكنهما اشتركا برؤية يسميها راسل "التصور الإنسانوي" وهي وفقا لديوي الإيمان بأن الهدف النهائي للإنتاج ليس إنتاج السلع بل إنتاج كائنات إنسانية تترابط مع بعضها البعض على أسس من المساواة."[25]

3_تجليات علاقة اللغة بالسياسة في فكر تشومسكي:

تظهر علاقة اللغة بالسياسة عند تشومسكي من خلال جانبين: من خلال تأثير نظريته اللغوية على معتقداته في السياسة، ومن خلال تواصل اهتمامه باللغة من خلال تحليله للخطاب السياسي. وسنبرر استنتاجنا هذا في النقاط التالية:

_إن الخيط الذي يربط بين كل اهتماماته الفكرية هو البعد النقدي لفلسفته، فكل مواقفه وأرائه ثورية؛ فعمله اللغوي انطلق من نقده للتوجه التجريبي في دراسة اللغة خاصة السلوكي الذي يرى أنه لا يملك أية براهين أو حجج قوية تثبت أن اللغة مجرد عملية آلية مادية، وتبعا لهذا، أقر بأن اللغة عملية عقلية وهي بهذا عملية إنتاج وليست مجرد نتاج. أما في السياسة فمجمل طروحاته نقدية، نقد للسلطة المركزية وتعرية آليات عملها وفضح خطاباتها المضللة.

_وتشومسكي كذلك وتبعا لهذا الموقف النقدي أراد تقديم طرح يثبت فيه أن الإنسان كائن غير قابل للتطويع أو التشكل كما ادعى التجريبيون ذلك، فلديه حصانة فطرية تشكلها الخصائص الجوهرية للطبيعة الإنسانية؛ ما يعني أن البشر تتاح لهم إمكانية فهم القضايا التي تتعلق بهم بعيدا عن القيود التي تضعها السلطة.

_ يبدو أن دفاع تشومسكي عن حرية البشر وتوقهم الغريزي إلى التحرر من خلال نظريته اللغوية قد مهّد لظهور كتاباته السياسية خاصة في ما يتعلق بتأثره بالتقليد الفوضوي الذي مجّد الحرية الإنسانية على نطاق واسع، فتكوّن لديه اعتقاد راسخ بأن الطبيعة الإنسانية المشتركة تقتضي أن يكون نشاطنا يتم بصفة خلاقة ومبتكَرَة؛ ما يعني أن هناك نظام من الغرائز يكوّن لنا

مختلف تنظيماتنا الفكرية السياسية والاجتماعية والثقافية، فلو جمعنا هذه المقترحات التي تتعلق باللغة وخصائصها الجوهرية يمكن تطوير أفكار جوهرية حول خصائص العقل البشري وقدرته اللامتناهية على الإبداع والعمل الحرّ، فنظرية تشومسكي اللغوية تقدم تصورا واضحا لكتاباته السياسية، وبالتالي، فالحرية والإبداع هما شرط التقدم في المجتمع، وهذا ما يتجلى في رفضه لمختلف أشكال السلطة التي تمارس على البشر، لأن الإنسان ليس لوحا أبيض يكتب عليه من في السلطة ما يشاؤون، ومنه قوله بأن أي شكل من أشكال السلطة يقتضي مسوّغا أو تبريرا، فالسياقات التي أدت بتشومسكي إلى الكتابة سواء في اللغة أو السياسة هي نفسها، ولعل هذا ما يمكّننا من القول أن عمله اللغوي قد ساهم إلى حد بعيد في بروزه كناشط سياسي.

_وما نستخلصه أيضا من النتيجة السابقة أن عقلانية تشومسكي تجلت في صورتين؛ في صورة تجريدية أو نظرية وهذا من خلال عمله اللغوي، وفي صورة تطبيقية عملية من خلال عمله السياسي الذي هدف من خلاله إلى إحداث التغيير في كل مجتمع، وهذا ما مكننا من القول بأن نظريته اللغوية هي المدخل النظري لعمله الفلسفي بينما تمثل كتاباته في السياسة الجزء التطبيقي منه.

_ ومن الملاحَظ أيضا، أن تخصص تشومسكي كلساني قد بدا واضحا في عمله السياسي؛ ففي معظم مؤلفاته السياسية اهتم بتحليل التوظيف السياسي للغة في الخطاب، وبيّن أن هناك تعارض صارخ بين المعنى اللغوي للكلمات وبين الممارسة التي تقابلها في الواقع، فالمصطلحات المستخدمة في الخطاب تتعارض مع أي تصور عقلاني أو منطقي إذا قورنت بالممارسة السياسية،

فعلاقة اللغة بالسياسة من هذا الجانب جديرة بالبحث حتى من وجهة نظر تشومسكي؛ فهناك العديد من المفاهيم المستخدمة من أجل "سدّ أو إعاقة الفكر والفهم، فعلى سبيل المثال، فإنه في عقد الأربعينيات كان هناك قرار، ومن المحتمل انه قرار واع، اتخذ في دوائر العلاقات العامة، وذلك لتقدم مصطلحات مثل المؤسسة الحرة و العالم الحر وهلم جرا، بدلا من المصطلحات الوصفية التقليدية مثل الرأسمالية"[26]، وكان أول تساؤل أُثير في هذا الشأن هو المسألة التي طرحها جورج أورويل George Orwell(1903ــ1950): "كم هي اللغة مسيئة، معذبة ومشوهة بطريقة ما، من أجل فرض أهداف أيديولوجية".[27] وقد ساهمت وسائل الإعلام في ترويج هذه الألاعيب التي تمارس عبر اللغة، إذ يقول تشومسكي: "فوسائل الإعلام داعمة لمصالح السلطة، فهي تشوه، وتكذب في الغالب من أجل الحفاظ على تلك المصالح"[28] حيث بيّن في مؤلَّفه: "صناعة الإذعان(الإجماع)" Manufacturing Consent, The political Economy of The Mass Media السبل التي تنتهجها وسائل الإعلام لصناعة المعلومة وإعادة تركيبها عبر ما أطلق عليه عمليات "التصفية أو الانتقاء" التي تمر بها المعلومة قبل نشرها فتعمل "السلطة والمال على انتقاء الأخبار الملائمة للطباعة وتهميش المعارضة والسماح للمصالح الحكومية والمصالح الخاصة السائدة المسيطرة لإيصال رسائلها إلى الجمهور"[29] وبيّن أن هناك خمس عمليات تخضع لها المعلومات تكوّن آليات عمل النموذج الدعائي:

1- الحجم والحيازة المركزية والتوجه الربحي

2- الإعلانات كمصدر دخل رئيسي لوسائل الإعلام.

3- اعتماد وسائل الإعلام على المعلومات التي تقدمها الحكومة والقطاع التجاري والخبراء الممولين.

4- ضبط الإعلام.

5- معاداة الشيوعية كآلية للدين القومي والرقابة المحلية [30].

وهذا جانب آخر من جوانب علاقة اللغة بالسياسة في فكر تشومسكي، والذي يوضح علاقة اللغة بالسياسة من خلال الخطابات التي تهدف إلى فرض نسق من القيم تكرس مصالح القلة التي تتولى مقاليد الحكم.

خاتمة:

يمكن القول في الختام أن الأرضية المشتركة التي انطلق منها تشومسكي لبناء أفكاره في كلا الحقلين اللغوي والسياسي هي مفهومه للطبيعة البشرية ولخصائصها الجوهرية؛ فهذا المفهوم هو حجر الزاوية الذي أسّس عليه تصوّره للإنسان، وبالتالي، فإنه لا يمكن التعامل مع تشومسكي اللغوي وتشومسكي السياسي، لكن علينا دراسة تشومسكي المفكر الذي اهتم بالإنسان وبحريته، كما أن قراءة مؤلفاته في اللغة والسياسة تكفي لإدراك ما بداخلها من بعد إنساني، وثقة غير محدودة في قدرة الجنس البشري على إحداث التغيير.

كما لا يمكن تقسيم فكر تشومسكي إلى جانب لغوي وآخر سياسي، أو القول أن تشومسكي قد ترك اللغة للتفرغ للقضايا السياسية؛ فكلا الجانبين متداخلين في فكره، فدفاعه عن حرية الإنسان ظهر منذ وضعه لنظريته اللغوية، كما أن هناك صلة وثيقة بين قول تشومسكي بالجانب الإبداعي لنشاط الفكر البشري (والذي عبّر عنه بالاستخدام الحر واللامتناهي لأهم

جانب من جوانب الفكر البشري وهو اللغة) وآرائه السياسية التحررية انطلاقا من تصوره للطبيعة البشرية، فمشروع تشومسكي الفلسفي قد اكتمل بمؤلفاته السياسية، كما أن نظريته اللغوية مهّدت لظهور آرائه السياسية. وهذه مقاربة لا شك أن هناك مقاربات أخرى لعلاقة اللغة بالسياسة في فكر تشومسكي من جوانب أخرى و تقرأ بمناويل تأويلية مختلفة و متداخلة.

الإحالات:

*عرّف تشومسكي اللغة في كتابه التراكيب النحوية (Syntactic Structures) الذي ألفه عام 1957 بقوله:«من هنا فصاعدا سأعتبر اللغة مجموعة (متناهية او غير متناهية) من الجمل، كل جملة منها محدودة في الطول، ومكونة من مجموعة متناهية من العناصر، وكل اللغات الطبيعية في شكلها المكتوب أو المنطوق هي بهذا المعنى، وكل لغة طبيعية تحتوي على عدد متناه من الفونيمات (أو الحروف الأبجدية)، وكل جملة يمكن تصورها كتتابع لهذه الفونيمات (أو الحروف) مع العلم أن هناك عدد غير متناه من الجمل.»
Noam Chomsky : Syntactic Structures, Mouton de Gruyten, Berlin, New York, 2002, p 13.

*السلوكية Behaviorism هي "مذهب أنشأه العالم الأمريكي واطسون J. B.Watson لتفسير السلوك بوصفه استجابة فيزيولوجية للمنبهات الخارجية، ويرفض الشعور موضوعا والاستبطان منهجا، ويأخذ بالمنهج التجريبي الموضوعي كما في العلوم الطبيعية معتمدا على تجارب بختريف (1857_1927) وبافلوف (1849_1936) في الأفعال المنعكسة الشرطية."(مراد وهبة: المعجم الفلسفي، دار قباء الحديثة للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، دط، 2007، ص 352).

[1]-Leonard Bloomfield : Language, London, First Published, 1935, p 23

[2] -Ibid, p 23

[3] -Ibid, p 23

[4]ــ نعوم تشومسكي: قوى وآفاق، تأملات في الطبيعة الإنسانية والنظام الاجتماعي، ترجمة: ياسين الحاج صالح، دار الحصاد للنشر والتوزيع، سوريا، ط1، 1998، ص 197

[5]ــ نعوم تشومسكي: آفاق جديدة في دراسة اللغة والعقل، ترجمة: عدنان حسن، دار الحوران للنشر والتوزيع، اللاذقية، سوريا، ط1، 2009، ص 35

[6]ــ نعوم تشومسكي: آفاق جديدة في دراسة اللغة والعقل، ص ص 39ــ40

[7]ــ نعوم تشومسكي: المعرفة اللغوية، طبيعتها وأصولها واستخدامها، ص 123

[8]ــ نعوم تشومسكي : أشياء لن تسمع بها أبدا، ترجمة: أسعد الحسين، دار نينوى، دمشق، دط، 2010،ص ص 88ــ89

[9]- Noam Chomsky : Aspect of The Theory of Syntax, The MIT Press, 1965, p 6

[10]_نعوم تشومسكي، ميشال فوكو: عن الطبيعة الإنسانية، ص 40.

[11]ــ نعوم تشومسكي: أشياء لن تسمع بها أبدا، ص ص 65ــ66

[12]نعوم تشومسكي، ميشال فوكو: عن الطبيعة الإنسانية، ص ص 22_23.

[13]_ نعوم تشومسكي، ميشال فوكو: عن الطبيعة الإنسانية، ص 23.

[14]_ نعوم تشومسكي، ميشال فوكو: عن الطبيعة الإنسانية، ص 57.

[15]_ نعوم تشومسكي، ميشال فوكو: عن الطبيعة الإنسانية، ص 57.

[16]-The Responsibility of Intellectuals (1967), in Noam Chomsky, American Power and The New Mandarins: History and Political Essays, New York, 1969, p 325

[17]_ نعوم تشومسكي: قوى وآفاق، تأملات في الطبيعة الإنسانية والنظام الاجتماعي، ص 96

[18]_ المصدر نفسه، ص 97

[19]ــ نعوم تشومسكي: اللغة والمسؤولية، ترجمة: حسام البهنساوي، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، ط2، 2005، ص 94.

[20]ــ نعوم تشومسكي: الدعاية والرأي العام، حاوره ديفيد بارسامين، تعريب: ابراهيم يحي الشهابي، مكتبة العبيكان، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط1، 2004، ص ص 47ــ46

[21]ــ نعوم تشومسكي: اللغة والمسؤولية، ص 91.

*الفوضوية (Anarchism) أو "اللاسلطوية (Anarchy) هي كلمة قديمة قدم العالم، وقد اُشتقت من كلمتين إغريقيتين قديميتانan و arkhe، وتعني شيئا كغياب السلطة أو الحكومة"(دانييل غورين: اللاسلطوية من النظرية إلى التطبيق، تقديم نعوم تشومسكي،

ترجمة: مزاحم الطائي، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى، ط1، دت، ص 37)

[22]ــ نعوم تشومسكي: أشياء لن تسمع بها أبدا، ص 167ــ168

[23]ــ نعوم تشومسكي: أسرار وأكاذيب وديمقراطية: ترجمة سركون برخو، دار الينابيع، سوريا، ط1، 2007، ص 140.

*وفي هذا يقول تشومسكي:"رؤاي الخاصة هي رؤى فوضوية من النمط التقليدي تماما، وتمتد أصولها الى افكار التنوير والليبرالية الكلاسيكية، يتوجب عليّ أن أوضح ما أعنيه بذلك قبل متابعة الحديث، فلستُ أعني تلك النسخة من الليبرالية الكلاسيكية التي أُعيد بناؤها من أجل غايات أيديولوجية، بل الليبرالية الأصلية قبل ان تتحطم على صخور الرأسمالية الصناعية الصاعدة وفقا لتعبير رودولف روكر في عمله الصادر منذ 60 عاما عن النقابية الفوضوية، وأعتقد ان تعبيره دقيق."(نعوم تشومسكي: قوى وآفاق، تأملات في الطبيعة الإنسانية والنظام الاجتماعي، ص 98)

[24]_ نعوم تشومسكي وجون بيركمون: العقل ضد السلطة، رهان باسكال، ترجمة: عبد الرحيم حزل، دار الأمان، المملكة المغربية، ط1، 2014، ص 65.

*وفي هذا يقول:"فلا توجد اليوم بطبيعة الحال شخصا واحدا يؤمن بما يسمى مسح الطاولة tabula rasa، فإن هو إلا موقف متهافت، لكن المدافعين أكثرهم تأثيرا واحتراما عن نظريات "الجسم الفارغ" أشدها تطرفا _ ب.ف. سكينر B .F.Skinner، وو.ف.كواين W.V.Quine ونيلسون كودمان Nelson Goodman_ قد كانوا أميل من الناحية السياسية إلى جانب اليمين، وأما كبار المدافعين عن البنية الفطرية...فقد كان يغلب عليهم الميل إلى جهة اليسار على الرقعة السياسية، وقد كنتُ واحدا منهم."(نعوم تشومسكي وجون بيركمون: العقل ضد السلطة، رهان باسكال، ص ص 70_71)

[25]_ نعوم تشومسكي: قوى وآفاق، تأملات في الطبيعة الإنسانية والنظام الاجتماعي، ص ص 102_103.

[26]ــ نعوم تشومسكي: تواريخ الانشقاق، حوارات أجراها معه ديفيد بارساميان، ترجمة: محمد نجّار، الأهلية للنشر والتوزيع، المملكة الأردنية الهاشمية، عمان، ط1، 1997، ص 17.

[27]ــ المصدر نفسه، ص 15.

[28]ــ نعوم تشومسكي: ضبط الرعاع، حوارات أجراها معه ديفيد بارساميان، ترجمة: هيثم علي حجازي، الأهلية للنشر والتوزيع، عمان، دت، 1997، ص 147.

[29]-Edward S. Herman and Noam Chomsky : Manufacturing Consent, The politicalEconomy of The Mass Media,Vintage Books, London, 1994, p 1

[30]-Ibid, p 1